

الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر التحول من الديني إلى الدنيوي و من القدسي إلى السياسي - دراسة أنثروبولوجية -

أ: العماري الطيب
جامعة بسكرة (الجزائر)

الملخص:

شكلت عودة نشاط الزوايا أو بالأحرى إعادة بعث دور الزوايا والطرق الصوفية وانخراطها الواسع في الحراك السياسي وعلاقتها بالمجتمع موضوع اهتمام الكثير من الباحثين في تخصصات معرفية عديدة (تاريخ، أنثروبولوجيا، سوسيولوجيا) ومن هنا تأتي دراستنا لموضوع الزوايا والطرق الصوفية، محاولين فهم أسباب وعوامل انبعاث هذه المؤسسة ومظاهر التحول في وظائفها وأدوارها وتوجهاتها. وما طبيعة العلاقة بينها والسلطة المركزية؟ وهل مازالت الزوايا الطرقية قادرة على أداء أدوار هامة في المجتمع المحلي في ظل التغيرات السريعة الحاصلة التي تعرفها الجزائر والعالم الإسلامي بل وكل العالم؟

Résumé

Le retour de l'activité des zaouias, ou d'une autre façon le rôle des zaouias et les actes soufists, son large implication dans la vie politique est un devoir de grande importance pour les chercheurs dans de multiples connaissances variées (Histoire, Anthropologie, Sociologie). Delà, notre étude sera basée dans le domaine des zaouias et des actes soufists.

Nous essayons de comprendre les raisons et les facteurs pour la création de cette société et sa vision pour la transformation dans le fonctionnement, ses rôles et ses orientations.

Quelle est la nature de la relation entre cette société et le pouvoir centrale ? Est ce que les zaouias sont capables d'assumer des rôles importants dans la société locale à l'ombre des changements accélérés que connaît l'Algérie, le monde islamique et tout le monde ?

مقدمة:

تعتبر الزوايا والطرق الصوفية ظاهرة اجتماعية جديرة بالاهتمام من حيث ثبوتها عبر الزمان والمكان، حيث تحظى بقدر لا بأس به من المداخلات في المناقشات العلمية، خاصة في تاريخ الجزائر الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي، فقد كانت من المواضيع الملفتة للانتباه منذ بداية ظهورها. فكثرت وامتدادها وانتشارها في المدن والأرياف والجبال والصحاري الواسعة، وإقبال الناس عليها لأخذ العلم من مشايخها، كل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانتها في المجتمع، وقد ظل النقاش قائما حولها بين القبول والرفض. فهناك من ينظر إلى الزوايا على أنها أوكار للبدع والخرافات، ويؤرا للمفاسد ومنبعا للعادات السيئة التي تشد الفرد إلى الوراثة. وبالمقابل فهناك من يرى أن هذه الزوايا مراكز للإشعاع الروحي والعلمي ومنابع للهداية والفضيلة، والأخلاق، وأنها صاحبة الفضل في استمرار الأفكار الصوفية، وكذا الحفاظ على الإسلام والقرآن، وظلت المكان الذي يلتقي فيه المریدون بمشايخ الطرق الصوفية، لأخذ الأوراد (طرق الذكر) وكذا تعليم الفقه والعلوم الدينية. أما من الناحية الاجتماعية فهي مكان استقبال الفقراء والمساكين، وعابري السبيل، والضيوف. أما من الناحية التاريخية فقد كانت لها أدوار سياسية هامة حيث نابت عن السلطة السياسية في البوادي والأرياف و لزم من طويل أو أنها كانت الوسيط بينها وبين المجتمعات المحلية الممتلئة في القبائل والاعراش، ويرجع الفضل في كل هذا إلى شيوخها ومقدميها، ومريديها. كل هذه الآراء دارت ولازالت تدور حول موضوع الزوايا

بصفة خاصة، و الطرق الصوفية بصفة عامة. ولذلك كان من الأهمية أن تحظى هذه الظاهرة بالدراسة والتحليل خاصة وأن الدراسات العلمية و الأكاديمية حولها قليل.

1-1 موضوع البحث وإشكاليته:

عرفت الجزائر و-على غرار جميع الدول العربية والإسلامية انتشارا واسعا للزوايا و الطرق الصوفية، حيث كثرت بالأرياف والقرى ومنذ العهد التركي الأضرحة والقباب والزوايا ، التي كانت تؤدّي أدوارا اجتماعية وسياسية وثقافية. وكانت السلطة العثمانية قد اعتمدت على الشعور الديني، وقوة الرباط الروحي لفرض وجودها بتلقائية، كما اعتمدت أيضا على القوى المحلية الممثلة في عائلات رجال الدين ، بالإضافة إلى الشيوخ الوسطاء على مستوى كل قبيلة أو قرية. إن الوزن الروحي والمعنوي الذي كانت تمثله العائلات أو الشخصيات الدينية إنما كان انطلاقا من الزوايا أو المساجد وأماكن العبادة والتعليم والعناية بالمعوزين والتحكيم بين الناس. وهكذا استمالوا قلوب الناس إليهم لأنهم رجال أتقياء، من جهة، وعلماء وأصحاب قلم من جهة أخرى. فكانوا موضع احترام ممزوج بالخوف وكان الناس يعتقدون أن لشيوخ الزوايا قدرات خارقة ومعرفة بما تكنه النفوس وذلك ما كان يميزهم على رجال السيف.

لقد ظل الشعور الديني حاضرا في جميع النشاطات الجماعية، لكنه غالبا ما يأخذ طابعاً خاصاً في القرى والأرياف، إذ تتميز هذه الأخيرة بانتشار الزوايا والرباطات، والطرق الصوفية. لذلك فإن حديثنا عن الممارسة الدينية في الأرياف والقرى والمدائر سيقودنا إلى الحديث عن الزوايا والأولياء، والطرق الصوفية، وذلك من حيث أن الطرق الصوفية كانت تؤدّي عبر نظام الزوايا والأولياء، أدوارا تعتبر مفصلية في إعادة التوازن إلى البنى الاجتماعية. إذ يتوقف ذلك على شدة تأثيرها على وجدان الناس عبر امتلاك عقولهم وقلوبهم باسم قداسة تكتسب عبر مجاهدات تربوية وروحية؛ أو عبر خوارق وكرامات غامضة، أو بواسطة نسب شريفي، مما يعطي للزوايا والطرق الصوفية القدرة على ممارسة السلطة نظامها .

إن أهمية موضوع الزوايا والطرق الصوفية وقيمتها العلمية، تتأكدان أكثر بالنظر طبعاً إلى راهنية بعض الأسئلة والقضايا الأساسية التي طرحت وما تزال على مستوى إشكالية السلطة، وطبيعة العلاقة بين الدولة والمجتمع في الجزائر الأمس واليوم. من خلال إبراز بعض الجوانب والقضايا النظرية والسياسية التي قد يثيرها موضوع الزوايا على مستوى الراهن الاجتماعي و السياسي، إذ أبدت السلطة في الجزائر مؤخراً اهتماماً متزايداً بالزوايا والطرق الصوفية باعتبارها من أهم المؤسسات الروحية التي حافظت على الشخصية الوطنية والهوية الحضارية للشعب الجزائري على مرّ الحقب والمراحل التاريخية. هذه القضايا لا يمكن فهمها وتأطيرها إلا على ضوء الإشكالية المطروحة في إطار هذا البحث.

تعتبر إشكالية الدولة في علاقتها بالمجتمع ومؤسساته، من أعقد وأوسع الإشكاليات التي يطرحها واقع البحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي للجزائر، خاصة إذا كان الأمر يتعلق- وكما هو الشأن بخصوص إشكالية هذا البحث- والتي تقوم أساساً على البحث في واقع علاقة مؤسسة الزوايا والطرق الصوفية بالسلطة، والرهانات الغير معلنة من قبل هذه الأخيرة (أي السلطة) على توظيف هذه المؤسسة في تحقيق قدر كبير من الاستقرار الاجتماعي والسياسي، ولاسيما في المناطق التي مازال يسود فيها الفكر الغيبي والديني بالنظر إلى أن التصوف طريقة في الحياة قوامها الزهد والتقصّف . إذ يرى أن حطام الدنيا هو مصدر الشر والشقاء، وذلك يقتضي من المتصوف احتقار المادة والعزوف عن الدنيا والانقطاع للتأمل والعكوف على العزلة والخلو.

وإذا كان الصراع السياسي على السلطة والفساد الاجتماعي من ترف وبذخ وارتكاب المحرمات والانشغال بالأمور الدنيوية ، هي الأسباب الأساسية التي أدت إلى ظهور نزعة الزهد والتصوف والانسحاب والانسواء إلى العالم الديني الذي يتصف بالقداسة والترفع عن ملذات ومفاتيح الدنيا منذ القرن السابع الهجري ، فإننا نلاحظ في السنوات

الأخيرة انخراط كبير من قبل ممثلي التصوف والصوفية بطرقها وزواياها ومريديها في الحراك الاجتماعي والسياسي في الجزائر وغيرها من البلدان.

وفي هذا الإطار فقد شكلت عودة الزوايا أو بالأحرى إعادة بعث دور الزوايا والطرق الصوفية وانخراطها الواسع في الحراك السياسي وعلاقتها بالمجتمع بالنسبة للكثير من الباحثين منطلقا لصياغة الفروض حول طبيعة هذه المؤسسات الاجتماعية الدينية وعلاقتها بالدولة ، وأسباب هذا التحول في مسار ومواقف المتصوفة من عالم القداسة إلى عالم السياسة ومن الانزواء إلى الانفتاح ، وهذا ما تؤكد العديد من الأبحاث والدراسات المونوغرافية والتركيبية التي تم إنجازها حول أهم الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر سواء من قبل باحثين جزائريين أو أجانب وفي هذا الإطار اختلفت المقاربات وتعددت باختلاف وتعدد التخصصات المعرفية (تاريخ ، انثروبولوجيا ، سوسيوولوجيا) وباختلاف الرؤى وتعارض الإيديولوجيات . ومن هنا تأتي دراستنا لموضوع الزوايا والطرق الصوفية ، محاولين فهم أسباب وعوامل التحول في وظائف وتوجهات هذه المؤسسة . وهل مازالت الزوايا الطرقية تؤدي نفس الأدوار والوظائف التي كانت تؤديها في الماضي؟ وما طبيعة العلاقة بينها والسلطة المركزية؟ وهل مازالت الزوايا الطرقية تتمتع بنفس السلطة السياسية على المجتمع المحلي؟ أم أنها تعد إلا مجرد أداة موجهة من قبل السلطة المركزية لخدمة سياساتها على مستوى المجتمع؟

1-2- تساؤلات الدراسة (الفروض):

على ضوء الفرضية العامة التي توجه هذا البحث ، فإننا ننتقل من أن علاقة الزوايا والطرق الصوفية بالسلطة (الدولة) هي علاقة ظلت متغيرة باستمرار ومحكومة بمجموعة من التناقضات ، وان التصوف الذي طالما اعتبر فعلا هامشيا محاطا بالقداسة ، وأظهره المستشرقون باعتباره حركات باطنية شبه سرية محدودة التأثير ، أصبح له حضور مكثف بل وتحولت الزوايا والطرق الصوفية إلى مؤسسات ضاغطة لها املاءاتها على السلطة السياسية إنما يدل على سلوك واع وإستراتيجية جديدة مدروسة تهدف أول ما تهدف إلى المساهمة في التغيير والتأثير وتوجيه السياسات . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هذا التحول من العمل الديني الروحي إلى المشاركة السياسية بهدف التغيير ، فإن الفرضية المتبقية أمامنا هي أن مؤسسة الزوايا قد عرفت تحولا خطيرا في مفاهيمها ووظائفها التي أملت عليها السياقات الجديدة والمستجدات الطارئة التي يشهدها العالم ككل والجزائر خاصة ، حيث لم تعد الممارسة الصوفية انسحابا من الحياة والانكفاء على الذات ، بل صارت تشكل قوة كبيرة في تشكيل الشأن العام .

1-3- أهداف الدراسة :

إن أهداف هذه الدراسة تتأكد أكثر بالنظر إلى الأسئلة التي حددت منطلقات هذا الموضوع : في طبيعة العلاقة بين الدولة والسلطة و المجتمع في جزائر الأمس و اليوم و عن المكانة و الدور الحيوي لهذه الزوايا والطرق الصوفية الذي يعبر عن التطور الذاتي للمجتمع ، وتبين كيف استطاعت بعض الزوايا و طرقها الصوفية الصمود في وجه كل محاولات الرامية إلى إزالتها و محاصرتها عبر مراحل الزمن المختلفة .

وهل يمكن لهذه الزوايا أن تكون المنطلق لنهضة فكرية و ثورة اجتماعية ثقافية جديدة . تعتمد الأصالة من جهة و العصرية من جهة أخرى كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين الغربيين المهتمين بموضوع الزوايا و التصوف و ليس أدل على ذلك ما قال المستشرق الفرنسي المسلم " إريك جيوفروي " المختص في الصوفية بجامعة لوكسمبورغ شمال فرنسا في حوار له الخاص مع " إسلام أون لاين . نت " >> " إن المستقبل في العالم الإسلامي سيكون حتما للتيار الصوفي << . >> و أننا يمكن أن نلاحظ أن هناك مد جديدا من الأجيال الجديدة للصوفية يعي الأبعاد الاجتماعية للصوفية . <<

1-4- المجال المكاني للدراسة :

ستكون دراستنا الميدانية في منطقة الزيبان التي تمتد في أرجاء واسعة من منطقة بسكرة، وتعد هذه المنطقة من أكثر المناطق الجزائرية التي انتشرت بها الزوايا في مختلف جهاتها و لعل من أهمها و أقدمها زاوية المرابط السني الشيخ سعادة الرياحي بالقرب من طولقة والتي ذكرها العلامة الكبير عبد الرحمان ابن خلدون في كتاباته، بالإضافة زاوية العلامة عبد الرحمان الأخضرري ببلدة بنطوبوس التي زارها الكثير من الرحالة و تحدثوا عنها، و زاوية الخنقة لشيخها عبد الحفيظ الخنقي بخنقة سيدي ناجي ، الزاوية المختارية بأولاد جلال و غيرها .

ولعل أكثر هذه الزوايا في لمنطقة زاوية علي بن عمر (الزاوية العثمانية) الرحمانية بمدينة طولقة و التي تعد بحق رمزا و قطبا دينيا و روحيا و ثقافيا لكل المنطقة و أكثر الزوايا نشاطا ، و أحسنها تنظيما ، و مركز إشعاع فكري يعود إليها الفضل و إلى شيوخها و تلاميذها في تأسيس العديد من الزوايا في القطر الجزائري و البلاد التونسية أيضا .

والتي كانت و مازالت الزاوية معقلا من معاقل الإسلام . ورمزا من رموز المنطقة ، بالإضافة إلى زاوية سيدي عبد القادر الجيلالي (القادرية) التي عرفت بعثا جديدا في العشرينين الأخيرتين لتتحول إلى هيكل عمرا نيا ضخما يتوسط مدينة بسكرة و مؤسسة دينية هامة و مقصدا لكل إداري و مسؤول .

1-5- الإجراءات المنهجية للدراسة:

إن الدراسة الانثروبولوجية لظاهرة معينة هو اهتمام بالسلوك الإنساني في سياقه الاجتماعي الثقافي الذي تحدث فيه تلك الظاهرة، فمن أجل دراستها بشكل جيد والإمام بجوانبها المختلفة يتحتم على الباحث الانثروبولوجي أن يستخدم وسائل وأدوات محددة ليتمكن في الأخير من السيطرة على موضوعه، وفي هذا يقول Pelto: "تستخدم الانثروبولوجيا أكثر من مقياس وأكثر من طريقة للملاحظة عند دراسة النظم الثقافية، وهذا ما يعبر عنه بالبحث المتعدد الوسائل، ذلك أن الانثروبولوجي يحتاج إلى عدد من أدوات البحث المتعددة حتى يتمكن من إجراء دراسته"⁽¹⁾.

وانطلاقا من هذا و تماشيا مع طبيعة الموضوع و خصوصياته المتعددة كان لزاما علينا أن نستخدم في بحثنا هذا أكثر من أداة واحدة في نفس الوقت و حسب طبيعة كل عنصر من عناصر الدراسة الميدانية ومنها:

أ/ الملاحظة بالمشاركة:

حيث تعد الملاحظة بالمشاركة أهم الأدوات المستخدمة في البحث الانثروبولوجي، بل يمكن أن نقول عنها الأداة الأساسية في هذا النوع من البحوث⁽²⁾، حيث تسمح هذه الملاحظة المباشرة للباحث في تتبع الظاهرة محل الدراسة وهي تتيح لنا توجيه التساؤلات و الحصول على النتائج.

ب- الاستعانة بالإخباريين:

يعرف جريك بايلي و جيمس بيوبلي الإخباريين بالقول: "إن الأشخاص الذين يسمحون للباحث الحقلية بإجراء المقابلة معهم، أو يسمحون له بالقيام بملاحظة سلوكياتهم، يسمون الخبراء أو الإخباريين، و بعضهم يقدمون عوننا كبيرا للباحثين"⁽³⁾.

ج- طريقة المقابلة: سواء منها كانت الموجهة أو غير الموجهة.**1-6- منهج الدراسة:**

يعرف المنهج بأنه الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة موضوع بحثه، و التوصل إلى الحقيقة، أو أنه الأسلوب الذي يستخدمه الباحث في دراسته للظاهرة، و يعرف العلم الذي يهتم بالبحث في طرق البحث بـ: علم مناهج البحث" و يذكر الباحثون أن هناك أنواعا عديدة من المناهج يختار الباحث منها ما يلائم أهداف دراسته، كما يمكنه

الموامة بين العديد من الاتجاهات المنهجية المتقاربة بالقدر الذي يخدم موضوعه ، وفي دراستنا لظاهرة الزوايا والطرق الصوفية سوف نعتمد منهجين اثنين أساسيين كما يمكن الاستعانة في تحليل بعض العناصر على مناهج أخرى:

1- **المنهج الوظيفي:** يهتم المنهج الوظيفي في الدراسات الانثروبولوجية حسب ما أورد الدكتور أحمد أبوزيد "بالتعرف و التفاعل القائم بين النظم التي تولد حياة المجتمع ككل ونصيب كل نظام منها في المحافظة على تماسك ذلك المجتمع واستمرار وحدته وكيانه .

يعتبر "ماليونوفيسكي" و "راد كليف براون" رواد هذا الاتجاه الوظيفي رغم وجود اختلاف بينهما في تطبيق هذا المنهج الوظيفي. فإذا كان ماليونوفيسكي يركز على الدور السيكلوجي و البيولوجي للظاهرة حيث يربط بين الثقافة و بين إشباع الحاجات الإنسانية. و التأكيد أن كل عنصر مهما كان بسيطاً ومعقداً لن يأخذ هويته الثقافية ما لم نضعه في سياقه الثقافي وأظهرنا كيفية أدائه لوظيفته⁽⁴⁾ فإن راد كليف براون يحدد اتجاهه الوظيفي على أساس دراسته للعلاقات بين البناء الاجتماعي و الحياة الاجتماعية، حيث يقول إن وظيفة أي نظام أو عرف أو معتقد وكذلك أي ممارسة أو نشاط اجتماعي متكرر هذه الوظيفة تكمن فيما تحمله هذه العناصر من آثار على كل البناء الاجتماعي و الحياة الاجتماعية⁽⁵⁾.

وبغض النظر عن الاختلافات بينهما فإن الوظيفة عندهما تقوم على تأكيد الحاجة للدراسات الحقلية الدقيقة، والاهتمام بالنظم الاجتماعية الموجودة بالفعل، والنظرة الشاملة للمجتمع أو الثقافة مع التعرف على الدور الوظيفي للعناصر الاجتماعية والثقافية لا بشكلها فقط، لأن الوظائف هي التي تحدد شكل وطبيعة الظاهرة والممارسة.

ب - المنهج التاريخي:

رغم تباين الآراء و المواقف لدى الباحثين الانثروبولوجيين الأوائل في استخدام المنهج التاريخي، وأهمية دراسة التاريخ لفهم الظواهر الاجتماعية و الثقافية للمجتمعات الحاضرة⁽⁶⁾. فإن هذه الاختلافات انتهت في العقود الأخيرة إلى التأكيد على أهمية استخدام المنهج التاريخي في الدراسات الانثروبولوجية، وكان لابد لدراسة المجتمعات من الرجوع إلى الماضي للتعرف على خصائصها الثقافية التقليدية ومقارنتها بما هو قائم حالياً، أو رصد التغيرات الحالية ومحاولتها التعرف على الأوضاع السابقة التي تحمل بذور هذه التغيرات.

ونحن هنا نؤيد ونعتمد رأي هرسكوفيتز في توضيحه لأهمية المنهج التاريخي في دراسة التغيرات بقوله:

" إن البعد التاريخي للثقافة ضروري من أجل الفهم السليم للسلوك الإنساني - فإذا كانت الدراسة المركزة للبناء تلقي ضوءاً على العلاقات القائمة في الحاضر فإن عوامل سببية أخرى سوف تتعرض للإهمال إذا لم نضع عامل الزمن موضع الاعتبار"

ومن هنا يأتي استخدامنا للمنهج التاريخي في بحثنا عن العوامل و الأسباب التي أدت إلى انبعاث دور ونشاط هذه المؤسسات الدينية و السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري.

2- الزاوية ووظائفها:

2-1- تعريف الزاوية:

* المفهوم اللغوي:

الزاوية في الأصل ركن البناء، و في اللغة "الزاوية" من الانزواء و الانطواء و الانعزال و البعد عن حياة العامة و الأسواق⁽⁷⁾، و لعل هذا ما يفسر وجود اغلب الزوايا في البراري و الجهات المهجورة بعيداً عن العمار.

و زوى الشيء أو زواه بمعنى قبضه معه، مما يفيد التركيز و التمكين من الشيء أيضاً، و زوى الشيء أي نحاه، و انزوى القوم بعضهم إلى بعض أي تدانوا و تضامنوا⁽⁸⁾، و يقال أيضاً انزوت الجلدة في النار: إذا انقبضت

واجتمعت"، و في حديث ابن عمر " كان له ارض زوتها ارض أخرى : أي قربت منها و قيل أحاطت بها مما يفيد معنى الإحاطة و القرب، كما يعني التهيؤ أيضا .زويت الكلام أي حبسته و أسرته في نفسي (9) و الزاوية مأخوذة من الفعل انزوي، ينزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف و التعبد(10).

من خلال هذه التعاريف العديدة يتبين لنا التنوع اللغوي الكبير لمعنى الزاوية مما قد يحيلنا إلى معاني كثيرة كالبعيد ، الانعزال ، الانطواء، والاعتكاف أو القبض و التمكن من الشيء أو التضامن ، الركن و أساس البناء و كلها مفردات ذات دلالات متقاربة أحيانا و مختلفة أحيانا أخرى ، فأى المعاني التي يمكن أن نطلقها و نحددها للزاوية؟ و إلى أي مدى يمكن أن نلاحظ حضور هذه الدلالات من خلال متابعة لوظائف الزاوية و دورها الاجتماعي؟ و هل كانت و مازالت مؤسسة الزوايا تمثل ذلك الركن و حجر الزاوية في البناء الاجتماعي من خلال حضورها و مساهمتها في الجوانب السياسية ، الدينية و التربوية.... الخ أم أنها مازالت تمثل نفس الدور القديم المتجدد و الذي تعبر عنه معاني الابتعاد، و الانعزال و الانطواء و الاعتكاف للعبادة في ظل الفراغات السياسية الطائفية و تدهور الأوضاع المعيشية للمجتمع؟

** المفهوم الاصطلاحي:

الزاوية ركن من أركان المسجد اتخذت للعبادة و الاعتكاف و التعبد ، ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات و يتعبدون فيها و يعتقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين و ما يتصل بالدين من العلوم العقلية و العقلية ، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر (11)، وهذا ما يذهب إليه أيضا عبد الحكيم عبد الغني قاسم الذي يرى أن الزاوية كانت في البداية تعني جزء أو ركن من المسجد يخصص للعبادة لكنها مع مرور الوقت اتخذت شكلا جديدا في هيئة دور - جمع دار - تقام للدراسات العلمية و الدينية، وقد اتخذتها الصوفية مكانا لإقامة حلقات الذكر فيها (12) وهو بذلك يصنفها (الكاتب) بوصفها من المؤسسات التربوية الصوفية.

و الزاوية عبارة عن مكان معد للعبادة و إيواء الواردين المحتاجين و إطعامهم و تسمى في الشرق خانقاة(وجمعها خانقهاة أو خانقاوات أو خوانق)(13) كما تعرف الزاوية بأنها "مدرسة دينية، و دار مجانية للضيافة، و هي بهذين الوصفين تشبه كثيرا الدير في العصور الوسطى (14) و لعل هذا ما يفسر أن هذه المؤسسات عرفت في بداية تأسيسها ببلاد المغرب خاصة على العهد الموحي بدار الكرامة

أو دار الضيوف في العهد المريني (15) كما يمكن اعتبار الزاوية أيضا مقر لسكن الولي، و مكان يجتمع فيه عليه (16). و تطلق الزاوية أيضا على المعهد و الرباط الذي تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالفقارية و التيجانية و السنوسية و الشاذلية و الخلواتية . و قد تطلق كلمة الزاوية على مسجد خاص بطائفة صوفية أو ضريح لأحد الأولياء تتصل بها غالبا مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي و كثيرا ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف و المنقطعين للعلم أو العبادة .

و الزاوية أيضا مؤسسة يقوم بتأسيسها شخص ذو شأن روحي و شخصية دينية معروفة بالفضيلة، بمبادرة منه مشهور بالتقوى و الصلاح و العبادة يتولى مهمة الوعظ و الإرشاد لمن يتردد عليه من أتباع و مريدين (17)، كما تأوي المنقطعين للعلم و الزهد و العبادة، و تحقق غرض منشئها و الواقفين عليها في فعل الخير و اكتساب الثواب .

و يذهب أبوا لقاسم سعد الله إلى أبعد من ذلك في تعريفه للزوايا عندما يقول أن: (الزوايا عبارة عن مؤسسات دينية و مراكز ثقافية و نواد اجتماعية و خلايا سياسية يتعلم الناس فيها مبادئ دينهم و تعاليم شريعتهم و فيها يتلقون مختلف العلوم و المعارف و يقيمون العلاقات الاجتماعية و العسكرية و السياسية)(18). وهو التعريف الذي يتوافق مع ذلك الذي يقدمه السيد عبد القادر عثمانى شيخ الزاوية العثمانية بطولقة بالقول: " إن لفظة الزاوية بالتعريف العرفي او الاصطلاحي هي عبارة عن مسجد ومدرسة أو معهد للتعليم القرآني ومأوى لطلبة داخلين يعيشون في تلك الزاوية بلا

مقابل ،وقد يضاف إلى ذلك ضريح مؤسسها الذي تسمى باسمه غالبا ، ولها طريقة تنتمي إليها ... وان أي مكان آخر أعطي له اسم زاوية وليس به مسجد ولا تعليم ولا مأوى لمن يتعلمون فيها فانها تسمية مزورة للتغليب والتضليل والتدجيل والابتزاز " (19) انطلاقا من التعريفات السابقة فإننا نرى أنها تركز التعريف الوظيفي للزاوية.

2-2- تأسيس الزوايا و موقعها من المسار الولاوي الصوفي:

تتأسس الزوايا في الغالب وفق نمط عقلاني حيث كانت الزوايا تتأسس و تفتح بناء على أمر يصدر من شيخ الطريقة لتلامذته،كتنويع لعملية مسارية للحفاظ على الطريقة و نشرها و بعد مرحلة تدرج في طريقة الشيخ و التي قوامها العبادة و المجاهدة و الجوع (20). و هذا ما يوضح لنا اتجاه الزاوية إلى الارتباط بالطريقة و العمل على نشر أفكارها و هذا واضح من خلال النشاط الصوفي للزاوية في تربية المريدين و التلاميذ و تنظيم مجالس الذكر و التدريس،أي تحول الزاوية إلى مؤسسة صوفية بكل معنى الكلمة،أي إن الزاوية تصبح فضاء لتربية المريدين على طريقة الشيخ و مسالكه في التصوف (حيث يتعلم فيها المريدون مسالك الطريق الصوفي و قواعده و يمارسون فيه خلوتهم، و تردد أذكارهم..الخ) (و قد يرشحون أو يؤمرون بعد مباركة الشيخ لبعضهم بالرحيل إلى قرأهم و مناطقهم لفتح زوايا أخرى للطريقة (أي كفروع للزاوية الأم).

كما قد تتأسس الزاوية على نمط "لا عقلاني" بل غيبي حيث يتدخل الخارق ،أي أن تأسيس زاوية ما في مكان ما إنما يكون نتيجة عوامل غيبية أي أن الشيخ تدفعه قدرة إلهية (نوع من الوحي من غير علم) أو (منام/رؤية) إلى تأسيس هذه الزاوية أو اختيار مكانها...الخ وهذا ما سيضفي عليها البركة ليس فقط على مستوى الطعام أو التحرم بالمكان، لكن أيضا على مستوى قدسية الموضع نفسه حرما لا يجوز انتهاكه أو يحرم كذلك ارتكاب الكبائر فيه،كما تنعكس أيضا على مستوى الموارد القارة التي ستحظى بها الزاوية تلمسا لبركة الشيخ،وفي زيادة عدد سكانها و في جميع الوظائف الاجتماعية التي ليست سوى أشكال متعددة لتوظيف البركة،من شفاء عليل و جلب الغيث و إطلاق أسير و حماية زرع و معاقبة الظالم (21).

كما قد يشارك الأمراء في تشييد الزوايا، و تظهر فيها بوادر التوكل و انفتاح الزوايا على المجتمع و على الفتوح و العطاءات و ترك الأولياء تدريجيا لنمط الكسب القديم .أي بكلمة أخرى تعامل أهل الولاية و التصوف مع الهبات و العطاءات و التي كانت لتطرح لولا بداية انتشار نمط التوكل.

وقد يأخذ تأسيس الزاوية طابعا رسميا : و نعني به تدخل السلطة (الدولة) مباشرة في توظيف بعض الموارد في تشييد المعالم و المؤسسات الدينية أو التنازل على بعض الأماكن أو المحلات...الخ لهذه المؤسسات الدينية (22).

وعلى خلاف الزاوية الحضرية التي تتواجد في المدن و الحواضر التي كانت تتميز بمحدودية مجالها المكاني وقلّة مواردها ، فان الزاوية التي نشأة في الأرياف و التي تعرف بالزاوية الرابطة أو الزاوية الحصينة امتازت في الغالب بامتلاكها أراضي واسعة و أشجار و حقول، تمثل أساس قوتها و عامل استمرارها ،كما يسكنها عدد اكبر من الرجال و قد يكون بها قبر مؤسسها .

2-3- وظائف الزاوية:

إننا سنحاول من خلال هذا الجزء(العنصر) إبراز أهم الوظائف و الأدوار التي اضطلعت بها الزاوية و مساهمتها في الحفاظ على بنية و تلاحم المجتمع في وقت ساد فيه شبه فراغ سياسي (أو حضور) للدولة المركزية و لمدة زمنية طويلة و لعل هذه الأدوار و الوظائف التي قامت بها الزاوية:

الوظيفة الدينية:

بطبيعة الحال لا مجال هنا لإعطاء أمثلة، لأن كل الزوايا تأسست و انطلقت على أساس الفكرة الدينية، لكن نكتفي هنا أن نذكر بان الوظيفة الدينية للزاوية تكتسي أهمية مركزية سواء في بناء الزاوية أو في توسعها لاكتساح مجالات نفوذ جديدة، من خلال تركيزها الشديد على الجوانب الروحية و الدينية في نشاطاتها اليومية، و قد توزعت إستراتيجية الزاوية في هذا المجال عبر مستويين: مستوى داخلي (مركزي) و مستوى ميداني (أفقي) أولاً: المستوى الداخلي: و هنا يأتي دور حلقات التوعية الدينية التي كانت تنظم من داخل حرم الزاوية، و بإشراف الشيخ نفسه أو احد أبنائه. حيث يتم التركيز على أمور تتعلق بمجال العبادات و الفرائض و آداب السلوك و المعاملات التي تقضيها الشريعة، أو لنقل باختصار شديد بان الهدف من وراء كل ذلك هو شرح مقتضيات الشريعة وفق تصور مبسط يراعي مستوى العقليات و لا ننسى أيضا ما كانت تمثله حلقات الذكر و تلاوة الأوراد في هذا الإطار باعتبارها وسيلة من بين وسائل أخرى لتعميق المعارف الدينية و التوجيهات الروحية بالنسبة لخدام و مرادي الزاوية. ثانياً: على المستوى الميداني (الأفقي): و هنا بالذات تتضح الإستراتيجية التوسعية للزاوية و التي تتأسس على شكل خاص من أشكال الدعاية الروحية و السياسية أيضا.

و في هذا الإطار كان شيوخ الزوايا (زاوية علي بن عمر، الزاوية القادرية) يسهرون بشكل منتظم على تنظيم زيارات إلى زواياهم الفرعية و حتى تلك الموالية لهم من غير طريقتهم، و استدعاء شيوخهم و بعض زعماء القبائل و الاعراش لحضور المناسبات، و التجمعات المختلفة، و القصد من ذلك بلا شك انه تصريف المبادئ المتبعة من قبل الزاوية و كسب المزيد من الخدام و الأتباع، بالإضافة إلى المكاسب المادية التي كانت تضمنها واجبات "الزيارة" المستحقة على كل زاوية فرعية أو قبيلة أو عرش يصلها موكب شيخ الزاوية أو العكس. كما كانت الزوايا الأم تقوم بتنظيم مواسم دينية تبركا بأحد شيوخ الزاوية البارزين و ما كانت تعنيه المواسم من إعادة إنتاج روحية و مادية لعلاقة الخدمة بين الزاوية و أتباعها.

الوظيفة التربوية و التعليمية:

أما على المستوى التربوي، فان الزاوية تربية روحية ووجدانية، بالنسبة للمتعلّم و الأمي، الرجل و المرأة، البالغ و القاصر، الشيخ و المرید. كما أن تربية الزاوية هي في الأساس انقياد و اعتقاد، خضوع و نية، بهاتين الخصلتين يتم الشفاء و الهناء و القناعة، ففي الزاوية يجد الفرد المساعدة و المواساة، الاعتبار و المساواة، النصيحة و الإرشاد، بشرط أن تحسن النية و يتم الانقياد (اطلب تعط)، النية تحول الأسباب إلى وسائل⁽²³⁾. و من هنا كانت أكثر الوظائف التي اضطلعت بها الزوايا هي وظيفة التعليم و التربية، حيث لعبت دور المركز العلمي الذي كان له الأثر الأكبر على مستوى تلك الحركة العلمية و الإشعاعية التي شهدتها المنطقة، و كانت الزوايا إطارا جديدا نافس المدارس الحضرية في العهد العثماني و من بعده العهد الاستعماري و ساهمت بوصفها مدارس أو مؤسسات تعليمية في المحافظة على مقومات الأمة (الجزائرية) بأبعدها، كما حاربت الأفكار الخاطئة (باستثناء الزوايا البدعية) و بالتالي حملت الزوايا هموم البنیان و ذات اهتمامات تطبيقية⁽²⁴⁾.

و في هذا الإطار يمكن إعطاء النموذج بعدد من الزوايا التي جعلت من وظيفة نشر العلم و تدريسه نقطة ارتكاز أساسية لتفعيل إستراتيجيتها الرامية إلى تربية المریدين و التوسع داخل المجال و بسط النفوذ الروحي للزاوية على القبائل في الأرياف، التي كانت في أمس الحاجة إلى من يؤمن لها حد أدنى من الثقافة الدينية و العلمية أيضا. و من أهم الزوايا التي كان لها الأثر الكبير على حركة التعليم في منطقة الدراسة و مناطق واسعة مجاورة لها نذكر: زاوية سيدي بن عزوز ضواحي طولقة و التي تعد منشأ (أو منطلق) جل الزوايا بمنطقة الزيبان و المناطق المجاورة لها⁽²⁵⁾ و الذي جعل من زاويته مدرسة لتخريج العديد من العلماء و المشايخ الكبار الذين ساهموا بدورهم

بتأسيس العشرات من الزوايا في المنطقة و خارجها، نذكر منهم الشيخ علي بن عمر صاحب زاوية طولقة، و الشيخ الحفيظ صاحب زاوية خنقة سيدي ناجي، و الشيخ المختار مؤسس زاوية أولاد جلال و غيرهم كثر (26).

أما زاوية (علي بن عمر) بطولقة و التي تعد بحق مركز إشعاع للعلم و تخريج العلماء فقد خصص مشايعها موارد قارة كانت توفرها الاحباس الكثيرة التي حازت عليها موجهة للإيفاق على طلبة العلم و كل الضيوف الوافدين عليها. و لم تشذ باقي زوايا الطريقة الرحمانية عن القاعدة في الاهتمام بتدريس العلوم المختلفة . و قد تخرج منها عدد كبير من العلماء و الفقهاء و المدرسين و المشايخ و هذا ما يشهد به تاريخ الزاوية منذ تأسيسها إلى يومنا.

و لعل أكثر ما يؤكد الدور الريادي لهذه الزاوية في مجال التعليم و التدريس احتوائها مكتبة تعد واحدة من اكبر و أقدم المعالم الثقافية في الجزائر بما تحتويه من مطبوعات و مخطوطات نادرة جدا و أخرى متنوعة في علوم القرآن و التفسير، و الفقه و السيرة و التراجم و المعاجم و الحديث و الأدب، و علوم الفقه و الجغرافيا و العلوم الدقيقة، و الثقافة العامة... الخ (27).

و كذلك الزاوية الرحمانية المختارية بأولاد جلال و التي كانت هي الأخرى بحق مركزا للإشعاع العلمي و القرآني و التي تخرج منها عدد كبير من العلماء و الفقهاء نذكر منهم: الشريف بن الاحرش ، محمد بن أبي القاسم مؤسس الزاوية القاسمية الرحمانية بالهامل ، الشيخ العابد السماتي ، نعيم النعيمي و غيرهم كثير (28).

مما تقدم يمكننا الاستنتاج و التأكيد على القيمة المركزية للجانب التربوي و العلمي الإشعاعي في نشاط الزاوية، و لعل هذا ما يتأكد بخصوص زاوية علي بن عمر الرحمانية بطولقة على أكثر من مستوى، فمن جهة هناك التصميم المعماري للزاوية، بحيث كانت (وما زالت) و على غرار باقي الزوايا في الجزائر تضم من بين مكوناتها المعمارية غرفا مخصصة لتلقي العلوم و قراءة القرآن، و من جهة أخرى يمكن الوقوف على محتويات خزانة الزاوية (بل معظم الزوايا) من الكتب و المخطوطات و التي تشهد طبعاً بالغنى و التنوع، و هذا في حد ذاته يبقى مؤشرا دالا على مدى اتساع و تنوع حقل التدريس العلمي من داخل الزاوية و تعدد اهتماماتها العلمية و الأدبية و الروحية أيضا، و من جهة أخرى يمكن إعطاء مثال بأعداد الفقهاء الذين تخرجوا من الزوايا و الذين ساهموا بدورهم في تنشيط الحياة العلمية و الدينية بالمنطقة.

وظيفة الإيواء و الإطعام:

و هذه الوظيفة ارتبطت بشكل وثيق بوظيفة التدريس و التعليم، حيث كان من ضروري توفير الشروط اللازمة من مبيت و مأكّل و مشرب، بالنسبة لطلبة العلم و للمدرسين الذين كان يتم استقدامهم من خارج المنطقة، و هنا يمكن تقديم أمثلة بزوايا علي بن عمر بطولقة التي كان لها احباس تتفقهها في سبيل العلم و الطلبة، و تذكر المصادر أن الشيخ علي بن عمر >>... كان رضي الله عنه ينهى عن حب الدنيا كثيرا، و يأتيه الذهب السلطاني فيشتري به و يطعم عابري السبيل و الزوار من بعد طلوع الشمس إلى الزوال، و بعض الأحيان حتى إلى قرب العصر، ثم انه رضي الله عنه يطعم الطعام من بعد صلاة المغرب إلى قرب ثلث الليل الأول و هو يخرج الأكل بيده مع كبر سنه و ضعف قوته...<< (29) و الأمثلة كثيرة أيضا عن زوايا أخرى كـ:..... الخ

إذن من الضروري اخذ بعين الاعتبار ذلك التلازم بين كل من وظيفة العلم و التدريس ووظيفة الإيواء و الإطعام، و لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك التلازم لا يفسر لوحده أهمية هذه الوظيفة في تاريخ الزوايا، بحيث أن وظيفة الإطعام و الإيواء تزيد أهميتها في فترات المجاعة و القحط و الأوبئة التي كانت تصيب من حين إلى آخر المنطقة . لقد كانت الزاوية توفر للجائعين أوقات القحط ما يملأ الأفواه و البطون و لو كان قليلا و هنا يتدخل مفهوم "البركة" و كانت الزاوية المكان الوحيد الذي لا تنفذ فيه هذه (البركة). إذن فالزاوية كانت تؤمن لخدماتها في الحالات

العصبية كهذه-حدا من الأمن الغذائي،و ذلك بالطبع مقابل خدمات و التزامات كان هؤلاء يتعهدون بالوفاء بها لصالح الزاوية كأشغال الحرث و الزرع و الرعي) علاوة على هبات كانت على شكل أراضي، تمنح للزاوية. كذلك كانت الزاوية توفر كل شروط الراحة من الإطعام و الإيواء للأتباع المرادين أثناء زيارة الزاوية خلال فترات متقطعة من السنة أو بمناسبة الموالد و من هنا صرح ما سبق و أن أطلقناه على الزاوية باعتبارها "دار الضيوف" و من خلال الدراسة الميدانية التي قمنا بها و مشاركتنا في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف بزاوية علي بن عمر بطولقة أحصينا في يوم واحد و هو يوم الاحتفالات إطعام أزيد من 800 زائر جاءوا من مناطق مختلفة و بعضهم من المناطق المجاورة و حتى من أهل المدينة(خاصة منهم الفقراء و المساكين) ،كما أحصينا إيواء أزيد من 500 زائر حيث تم استغلال كل المرافق الواسعة المخصصة للطلبة و تحويل كل الأقسام و القاعات المخصصة للمطالعة إلى مرافد مؤقتة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من الوافدين على الزاوية في هذه المناسبة.و كان الشيخ عبد القادر عثمانى شيخ الزاوية وأولاده يقومون بأنفسهم و بأيديهم على إطعام الناس بالإضافة إلى إشراك طلبة الزاوية في هذه العملية و تحضير كل الأجواء لضيوف الزاوية.

كما مثلت الزوايا (الزاوية) لفترات طويلة أماكن للراحة و العبور بالنسبة لحجاج بيت الله في طريقهم من و إلي مكة المكرمة

وظيفة الوساطة و التحكيم و الفصل في المنازعات: في ظل غياب شبه التام للسلطة المركزية،و تراجع مكانة مجالس القبائل و عجزها سادت أوساط المجتمع القبلي الذي يميز المجتمع الجزائري في المراحل السابقة صراعات و خلافات حادة كانت غالبا من تنشأ نتيجة الصراع حول المرعي،و الأسواق و صراعات على مستوى الأفراد و الأنساب و غيرها ، هذه الصراعات و الخلافات التي تزداد في أوقات الأزمات الاقتصادية (القط،المجاعات...الخ)، و في ظل هذه الأوضاع،ستظهر فئة من الناس مهمتهم التوسط في المنازعات و التحكيم بين الأطراف المتنازعة،لضمان الصلح و بالتالي الأمن و الاستقرار من داخل القبيلة، و قد تعلق الأمر هنا ببعض المرابطين الصالحين و شيوخ الزوايا.وقد مثل هؤلاء الأخيرون أقوى الفئات بالنظر إلى ما كانوا يحتكمون عليه من سلطة روحية و زمنية تتسع باستمرار ،كما مثل الشرف (النسب الشرفاوي) سلطة فاعلة في التأثير على المتنازعين و فض الخلافات و الصراعات.

إن وظيفة الوساطة و التحكيم شكلت جزءا لا يتجزأ من البنية الوظيفية التي كانت تحكم تحركات و نشاطات مؤسسة الزاوية منذ العهد الأول لتأسيسها . لقد كان شيوخ الزوايا و بحكم ما كانوا يحظون به من قداسة و هيبة يجدون في قوة "البركة" و مفعولها السحري على مستوى الأذهان، يمثلون ملاذ تقصده المجموعات الضعيفة للاحتماء،و حكم يرضى بحكمه الجميع باعتبار الزاوية كسلطة دينية تتموقع خارج هذه الصراعات⁽³⁰⁾.

وظيفة الشفاعة:

لم يكتف الصلحاء و الشرفاء،في نظر الناس بمهنة التوسط لدى الغيب من أجل الشفاعة لهم عند الله كي يرفع عنهم كارثة ما (مجاعة،قحط ،وباء....) بل تعدى مجال تدخلاتهم هذا مستواه الروحي و اللامعقول إلى مستويات أخرى زمنية ، سياسية.و في هذا الإطار فقد اكتسب مفهوم الشفاعة مدلوله الواقعي.كتدخل لدى السلطان أو الحاكم الإداري المحلي أو الإقليمي (البايك) بهدف استصدار عفو أو عطفه على الجهة أو الطرف المعني بالشفاعة سواء كان فرديا أو جماعة سلالية أو أحيانا قبيلة برمتها .

فاعتبارا لوضعهم الروحي و السياسي و لمكانتهم لدى السلطان اعتبر شيوخ الزوايا هم المؤهلين أكثر من غيرهم للممارسة هذه الوظيفة ، و قد يكون تدخل الزاوية من أجل استصدار عفو السلطة من عقوبة السجن و قد يكون من أجل إسقاط و إلغاء أو تأجيل عقوبة سلطوية على قبيلة(عرش) ما لرفضها أو عجزها عن أداء الضرائب و الواجبات المستحقة عليها.وقد يكون أيضا تدخل الزاوية لاستصدار عفو السلطان أو من يمثله على مستوى الأقاليم على

أحد الموظفين في إدارة السلطة نفسها أو العطف عليه و إعلاء مكانته. و هذا مؤشر دال على مدى النفوذ الاجتماعي و السياسي الذي تمتعت به بعض الزوايا وشيوخها.

إن عملية الشفاعة كانت تتطلب مجموعة من الطقوس و المراسيم التي تنظم هذه العملية و هذا ما كان يندرج في إطار ما يعرف بواجبات الشفاعة و نذكر منها :

1- طقس (رمي العار) الذي يتم تفعيله من خلال تقديم (الذبيحة). كأن يذبح (خروف أو ثور أو أكثر) بحسب قيمة و حجم الطلب ، على مدخل الضريح .

2- التسليم :و بموجبه يتقدم الطالب أو الطالبون لشفاعة الشريف فروض ولائهم و طاعتهم لهذا الأخير، اعترافا منهم ببركته

3- التعهد بأداء مجموعة من الخدمات للزاوية ، هذا علاوة على تقديم الزيارات و الوعدات و هدايا أخرى غالبا ما كانت على شكل أراضي زراعية

وظيفة تامين التجارة و تخزين السلع:

إن الملاحظ لتواجد و توزع كل الأسواق الشعبية ذات التاريخ الطويل و الشهرة الكبيرة في مناطق مختلفة من مجال الدراسة و خارجها أنها تقع بالقرب أو حول ضريح ولي صالح أو زاوية ، مما يجعل منها (حرما آمنا) للتبادل التجاري بين قبائل و اعراش المنطقة .

ويمكن إعطاء أمثلة هنا .سوق السبت الأسبوعي (أو ما يعرف بسوق مرناش سابقا) والذي كانت تسوق إليه القبائل و الاعراش من جنوب الاوراس ، الزيبان و مناطق الحضنة و وادي ريغ ، هذا السوق الذي اتخذ له من حرم الزاوية علي بن عمر بطولقة مكان للتبادل لما يوفره حرم الزاوية و أهل الزاوية من حماية للتجار ، كما يمكن أن نذكر أيضا السوق السنوي الذي يقام حول ضريح (الولي) النبي سيدي خالد والذي يتزامن مع الزيارة السنوية (الحج الأصغر) للضريح في اليوم السادس و العشرين من شهر رمضان لكل سنة . و السوق الأسبوعي لمدينة سيدي عقبة حول ضريح الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري ، وكذا سوق عيد الخريف السنوي الذي يقام حول ضريح زاوية و مسجد الولي الصالح سيدي عبد السلام بن مشيش بتكوت جنوب الاوراس (ملاحظة:تغير موقع بعض هذا الأسواق عن مجال الزاوية بسبب التغيرات العمرانية التي عرفتها هذه الأماكن)

تتدخل القداسة لتعمر كل المكان و تصفه بالحرم مما يجعل منها منطقة آمنة منزوعة السلاح، كما تتدخل الكرامة لمراقبة و تامين القوافل و السلع لتصبح بذلك الأسواق نفسها و المسالك المؤدية إليها حرما آمنا، مما يوفر فرص التبادل التجاري السلي لسكان و قبائل المناطق المختلفة . و كما تعود على الزاوية بمداخل معتبرة (نقدية كانت أم سلعية) مما يقدمه التجار كهبات و صدقات للزاوية و لشيخها مقابل حمايته و إيوئهم و إطعامهم في كثير من الأحيان

و بالإضافة إلى وظيفة تامين التجارة و الأسواق ، كانت بعض الزوايا تخصص غرفا على شكل مستودعات (دار خزين) يضع فيها المتسوقون سلعهم ، أو يستعملها سكان المنطقة في تخزين منتجاتهم ، و أحيانا الزكاة من الحبوب (قمح شعير ... الخ) و تمر مختلفة يتم استهلاكها و توزيعها على الفقراء و المساكين حسب عدد الأفراد في أوقات الحاجة ، و هذا ما يحول الزاوية إلى مخزن جماعي آمن لاحتياطي القبيلة من الحبوب و المحاصيل الزراعية المختلفة و ضمان الأمن الغذائي أمام تزايد و انتشار ظاهرة السطو و النهب و اللصوصية الناتجة عن غياب و عجز السلطة المركزية في السيطرة على المناطق الريفية و القروية

وظيفة التمريض و العلاج:

لقد اشتهر العديد من مشايخ الزوايا بعلاج الكثير من الأمراض المستعصية كالبرص، و العقم، و الصرع و غيرها من خلال تقديم وصفات طبية مستخلصة من الأعشاب و بعض المواد المعدنية، أو قراءة القرآن. تقديم التمام و

الأحجية، ممارسة بعض الطقوس كلبس عباءة الشيخ، استخدام ريق الشيخ الشريفي أو مسح بيده اليمنى على جسم المريض و غيرها من الطقوس و الوسائل و التقنيات التي كانت تعتمد في العلاج⁽³¹⁾ و إذا كانت كتب المناقب و الوثائق التاريخية لا تذكر الكثير من ذلك فإن الروايات الشفوية التي جمعناها من مجال الدراسة، و الملاحظة و المعاينة لبعض تلك الممارسات كاف لتأكيد هذه الوظيفة.

فزاوية سيدي رواق القادرية بطولقة (زاوية غير مفعلة) اشتهرت (أي اشتهر شيوخها) بالعلاج من الكثير من الأمراض خاصة الروحية منها كالمس و السحر و الحسد عن طريق القراءات القرآنية، و التائم و الأحجية (الحجب) كما اشتهرت زاوية سيدي عبد الحفيظ الخنقي بمعالجة الأسقام الجسمية عن طريق شرب الماء من البئر الذي يقع في حرم الزاوية و كذلك الشفاء من العقم و تمنح بركة شيخه الذكور دون الإناث من خلال وضع "سبحته" على رقبة الشخص فالبركة تنتقل من الولي و تتجسد في أدواته في حياته و تستمر بعد وفاته .

3- الزوايا : عوامل التحول ومظاهره:

3-1- أثر التحولات السياسية على الظاهرة الدينية.

إن أغلب الدراسات التي اهتمت بالظاهرة الدينية وبسائر الظواهر المجتمعية في البلدان الإسلامية خلال الفترة المعاصرة، و تحديد مرحلة الدولة الوطنية، قد عالجت مواضيعها. انطلاقا من منظور التحولات فقد لاحظت أن المجتمعات في أغلب هذه البلدان هي مجتمعات بصدد التكون، لأنهما تعيش وضعا متغيرا باستمرار وتشهد في إطاره ضروبا من التحولات مست البناء الاجتماعي وما يرتبط به من بنى تقليدية فككتها وأحلت محلها بنى وعلاقات جديدة فإن التحول قد شمل الظاهرة الدينية كذلك وخاصة الممارسة الاجتماعية للدين⁽³²⁾.

وفي الجزائر ومع ميلاد الدولة الجزائرية المستقلة والمصبوغة بطابع الوطنية بدأت البيئة الاجتماعية التقليدية في التفكك، فحل الانتماء إلى الوطن محل الانتماء إلى القبيلة والعرش وحل الولاء للدولة ولمنظومتها الثقافية والرمزية محل الولاء للقبيلة ولثقافتها ومنظومة رموزها ومعتقداتها. لقد ظل المجتمع التقليدي يمثل إطارا مناسباً ليكون الدين وما يرتبط به من عقائد وتمثيلات شعبية أهم مصدر لتشكيل الوعي الجمعي والمتخيل بينما غدا المجتمع الناشئ على أنقاضه والمؤسس على مبدأ الانتماء إلى الوطن إطارا مناسباً لتقبل ثقافة حديثة بأشكال جديدة في المعرفة تنتسب إلى العلم وإلى أسسه الفلسفية الحديثة وتستند في الفعل إلى التقنية وعقلانياتها.

ومن أجل أن تضمن الدولة "الوطنية" تجسيدا عمليا لإستراتيجيتها القائمة على تحييد القوى التقليدية المحافظة وتجميد المؤسسات المرتبطة بها (مثل الزوايا والكتاتيب...) عملت على تفعيل المؤسسات الجديدة التي أنشأتها وخاصة منها المؤسسة التعليمية، ذلك أن مشروع الدولة الوطنية قد قام على اعتبار المدرسة "أداة تعيد تشكيل المجتمع"⁽³³⁾. ووسيطا فعلا يمكنها من الاستئثار بسلطة نشر المضامين الفكرية والثقافية والنماذج السلوكية المنسجمة مع توجهاتها والمكرسة للاندماج في صلب منظومتها.

كما عملت الدولة على فرض رقابتها على سائر ما يرتبط بها من مؤسسات من مساجد وزوايا وكتاتيب كما تمكنت من تفتيت الأساس الاقتصادي لوجود الزوايا التي وجدت نفسها بفعل ذلك مهمشة بفعل مصادرة ممتلكاتها كالأوقاف والأحباس خاصة عند تطبيق قانون الثورة الزراعية وتأميم ممتلكات الواسعة لصالح الدولة وإعادة توزيعها⁽³⁴⁾.

لقد استطاعت سياسة التحديث الراديكالي الذي عرفه المجتمع في الفترة الممتدة من الاستقلال إلى مطلع التسعينيات من القرن الماضي أن يحد من نشاط المؤسسات الدينية التقليدية - الزوايا - ويؤدي إلى تراجع وانحسار (التدين) المقدس الشعبي بالمقابل كان هناك تشجيع (أو تغافل) للتدين الرسمي العالم الذي أخذ يتطور، مما سمح بظهور الحركة السلفية والحركات الأصولية المتطرفة . و بسبب هذه الاستراتيجية، فالمدرسة أخذت مكان الزاوية في نشر

التعليم، والدولة أخذت مكان القبيلة والولاء الديني، فأصبحت رمز الولاء، واستقطبت القيم الحديثة كالنقد والإيمان بالعلم اهتمام الناس، بعد أن كانت قيم القرية والقبيلة والعائلة هي المحددة للوعي والسلوك .

لقد أثرت هذه التحولات السياسية والاجتماعية- العمرانية والثقافية والاقتصادية في وضع الدين في المجتمع وفي التمثلات الدينية الشعبية. فالتعليم بما نشره من قيم جديدة وأفكار حديثة وبما أحدثه من حراك اجتماعي وبما ترتب عليه من تحولات في نظام الوظائف والمهن، قد حد من نفوذ المعتقدات الشعبية وغير المتخيل التقليدي، فترجع الاعتقاد في قدرة الصلحاء والأولياء والمطبيين الشعبيين وسائر محترفي التنبؤ والعرافة على التأثير في الأحداث.

وبذلك تقلصت الممارسات الطقوسية المرتبطة بهذا الاعتقاد، وسري لدى فئات الشباب المتعلم موقف من هذه المعتقدات ينبع من رؤية تحتقر الكرامة والعجيب والخارق، وتؤمن بقيم العلم الحديث، وانحصرت هذه العقائد في الفئات التي لم تتلق تعليماً حديثاً ولم تمسها آثار الثقافة الجديدة.

ومن جهة أخرى، استقطب نظام المهن والوظائف الجديدة الجهد والوقت، فغير بذلك أشكال التدين حتى كادت تنحصر في الممارسات التعبدية الرسمية، وهمش أشكال التدين الشعبي وطقوسه، ونشأت بفعل هذا النظام مؤسسات جديدة كالنقابات والتعاونيات والجمعيات المهنية والنوادي، فخلقت أشكال تضامن حلت محل التضامن التقليدي الذي يتجسد الاشتراك في المعتقد وفي الطقس.

فقدت مؤسسة الزوايا إحدى الوظائف التي كانت تبررها في نظر أصحابها. كما فقدت وظيفة الترفيه والتسفس عندما أتاحت المؤسسات الحديثة للمشاركين فيها وسائل أخرى أجدى في أداء نفس الوظيفة. كما أتاح فضاء المدينة الذي استقطب أغلب المهن والوظائف المرتبطة بالتعليم والتصنيع واستقطب أصحابها، إمكانيات جديدة لتحقيق نفس الوظائف. فقد خلق هذا الفضاء العمراني أشكال تضامن اجتماعي يؤسسها الاشتراك في المهنة أو الوظيفة أو في منطقة السكن (الحي الشعبي خاصة) حلت محل أشكال التضامن القبلي والعشائري المعبر عنها عقائدياً وطقسياً بالاشتراك في نفس المنظومة الرمزية التقليدية⁽³⁵⁾.

كما وفرت فضاءات للهو والترفيه (الجمعيات و النوادي الرياضية والمسارح ودور السينما والمقاهي والمهرجانات والأنشطة الفنية) حلت محل فضاء الزوايا وأشطته الذين استقطبوا وظيفة الترفيه في إطار المجتمع التقليدي. وهكذا أثرت هذه العوامل مجتمعة في المعتقدات الشعبية المرتبطة بمؤسسة الزوايا وفي ما يرتبط بها من ممارسات طقسية⁽³⁶⁾،

3-2- مظاهر تحول القدسي إلى الدنيوي:

تتجلى أبرز مظاهر التفكك في انفجار النسيج الطقوسي الذي كان يمثل الممارسات الدينية الشعبية- وقد شمل هذا الانفجار أشكال ممارسة الطقوس ومرجعيتها الرمزية ودلالاتها ووظائفها.

ففي الطقوس المرتبطة بالزوايا والتي عرفت اضمحلالاً شبه تام " زيارة الولي"⁽³⁷⁾. مثلاً التي لم تعد طقساً ثابتاً من طقوس العبور الذي يصاحب الولادة، وقص الشعر المولود الجديد والختان والزواج. وحتى في حال تشبث بعض الأفراد والفئات بهذه الزيارة، فإن دلالتها الرمزية بالنسبة إلى من يمارسها باتت مختلفة عن دلالتها الأصلية، فهي لم تعد من الطقوس التي تعقد بواسطتها الصلة بين المقدس والولي وأتباعه، ولا من الطقوس التي تسهل مسار العبور من وضع والاندماج في وضع جديد، بل إنها تمارس بصفتها عادة كثيراً ما يفرضها جيل الآباء على الجيل الجديد إقتداء بالسلف، من دون أن تكون لها نفس المعتقدات والدلالات الرمزية⁽³⁸⁾.

كما لم يعد من شروط الزيارة أن تكون جماعية تشمل أفراد العائلة الموسعة أو العشيرة بل أضحت في الغالب إما عائلية ضيقة أو فردية، تختزل في زيارة ضريح الولي وقراءة الفاتحة والتوجه إليه ببعض الأدعية وتقديم النذور في

وقت لا يتعدى ساعات كما لم تعد الذبيحة التي كانت من الطقوس الثابتة في الزيارة ولا وسيلة يجدد بها الزوار الصلة بالولي والمقدس ولا طقسا يتحقق به إحياء البدايات المؤسسة.

وتمتين الروابط وتحقيق الاندماج في صلب العشيرة أو العائلة الموسعة، بل استبدلت في الغالب بطعام جاهز يقدم للقائمين على الزاوية، كما أصبحت في حال حصولها محملة بدلالات دنيوية طغى عليها الطابع الاستهلاكي وأصبحت بالنسبة إلى الكثيرين مناسبة لإقامة الدليل على الوجاهة وللتباهي لا أكثر.

وباقصار الزيارة على بضعة ساعات فقدت أيضا مظاهرها المختلفة المرتبطة بها مثل الحضرة والإنشاد الديني والأدعية فضلا عن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تقام على هامش مواسم الزيارة.

وفي هذه "المواسم" فإنها خضعت هي الأخرى لنسق الحياة الدنيوية ولما شهدته من تغير، فلم تعد أوقات الزيارة وإقامة "الزردة" ترتبط بفصول الإخصاب أو طلب الاستغاثة بالولي... أو ذكرى مولد الشيخ المؤسس... إلخ بل أصبحت ترتبط بفصل العطل الاجتماعية (كعطلة الربيع، وعطلة الصيف... إلخ) وهو تعبير عن انحصار دلالتها الدينية مقابل بروز دلالات جديدة دنيوية غالبا.

كما تحولت "الزردة" المرتبطة بعدد كبير من الأولياء وفي وجهات كثيرة إلى مهرجانات محلية أو سياحية أو وطنية. مثل: (زردة سيدي موسى بالزاب الشرقي - احتفالات عاشوراء بأدرار... إلخ واحتفالات المولد النبوي الشريف....). توظف من قبل السلطة السياسية وفي إطار إستراتيجيتها لاحتواء أو تدجين مؤسسة الزوايا ومقاومة أشكال التدين الشعبي والثقافة التقليدية المرتبطة به وعقلية الشعوذة والخرافة التي نسبتها إلى أصحاب هذا التدين⁽³⁹⁾.

أما الطقوس العلاجية التي كانت تشكل جزءا من النسيج الطقوسي المرتبط بعقيدة الصلحاء وبفضاء الزاوية فإنها انحسرت أمام التقدم الطبي وانتشار المؤسسات الإستشفائية في أغلب جهات الوطن⁽⁴⁰⁾.

وإذا كانت كل الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية المتصلة بالدين تبرز وتؤكد على الخاصية الاحتفالية للتدين الشعبي على غرار - إيزامبير - الذي يؤكد على "اعتبار الحفل أحد المكونات الأساسية"⁽⁴¹⁾.

هذه الخاصية التي يرى فيها أنها تسمح بالمرح والتلقائية والإبداع الجماعي، وبالقدرة على تلبية حاجات عاطفية نفسية على التعبير عن رغبة الأفراد في ربط علاقة مباشرة مع المقدس⁽⁴²⁾ فإن المظاهر الاحتفالية الدينية المرتبطة بالزاوية (مثل إقامة الحضرة) قد شهدت إنزياحا عن دلالاتها الدينية، التي كانت قائمة على طقوس أساسية كالأضاحي والأدعية والصلاة وتلاوة القرآن، وأخرى شعبية كالنذور والاستشفاء وطلب بركة الولي وشفاعته. بل أصبحت ممارسات غلب عليها الطابع الدنيوي حتى أضحت الاحتفال الديني، متمثلا من حيث خصائصه مع سائر الاحتفالات الدنيوية "فلا شيء اليوم في الزوايا يحيل على معان روحية أصيلة وصميمة ربما كانت ملتصقة بها، إنها تدين أكثر إلى الذاكرة الجماعية التي يحكمها التكرار الشعائري وليس إلى العمق الروحي والرمزي⁽⁴³⁾.

فالجمهور الذي عاد إلى الزاوية إنما أصبح يذهب إليها الآن لأنها تتيح فضاء لممارسة الاحتفال بحضور الجماعة ولحرية ممارسة الأنشطة حتى المحظور منها ولاختراق نسق اليومي الرتيب. عاد إليها لأنها فضاء "يشعر فيه بالتفريغ والتصريف، بالراحة والتنفيس وتجاوز المخاوف من الموت والطبيعة وألوان الإنقهار الاجتماعي"⁽⁴⁴⁾.

فالزاوية أصبحت (أضحت) الملاذ لكثير من الناس يبحثون فيها عن بدائل تعويضية تشعرهم بالأمان وتحقق لها إشباعا ولو وهميا يرتكز على اللامعقول والعجيب في مواجهة واقع يشعرهم بالغرابة والإحباط⁽⁴⁵⁾.

كما أن جمهور الزوايا لم يعد يشكل جماعة يوحد بين أفرادها المعطي القرابي - وإنما هو جمهور من الأفراد قد يوحد بينهم الاشتراك في مدخل الإقامة - أو في الولاء الرمزي للولي (بعد أن تفككت بنى القرابة: القبيلة القائلة الموسعة وطغيان الفردانية...).

لذلك فإن عودة هذا الجمهور إلى الزاوية هي ممارسة دنيوية غالباً، لا تدين لما تحيل عليه هذه المؤسسة من عقائد بقدر ما تدين لحضور الجماعة ولما يتيح ذلك الحضور من إمكانية الاحتفال والترفيه وقطع رتابة اليومي، وكأنهما عمليات تهدف إلى جعل المقدس الشعبي الممثل في دين الزوايا والطرق الصوفية، قادراً على مواكبة تحولات المجتمع وحركة التحديث⁽⁴⁶⁾.

3-3- إعادة بعث الزوايا والطرق الصوفية :

عمدت الدولة (السلطة السياسية) منذ مطلع التسعينيات في ظل تنامي الاحتجاجات الشعبية ضد اختياراتها الاقتصادية والأزمة السياسية ومن أجل محاصرة (ومحاربة) الإسلام السياسي (الأصولي المتطرف) الذي مثلته أحزاب سياسية قامت على أفكار دينية

جهادية متشددة إلى تشجيع عودة إسلام الزوايا (الإسلام الشعبي) في الأوساط الريفية والمدنية المهمشة⁽⁴⁷⁾.

ومن الواضح أن تدين الزوايا والطرق الصوفية قد أصبح منذ مطلع التسعينيات موضوع رهان سياسي - إيديولوجي فالسلطات الرسمية عملت على توظيفه في مقاومة الإسلام الأصولي المؤدلج. فكان هذا الواقع مناسباً لتعاود الزوايا والطرق الصوفية الانبعاث والانتشار ولكن ضمن رؤية مختلفة ولغايات ووظائف غير التي كان يضطلع بها في إطار المجتمع التقليدي (زمن الفترة الاستعمارية مثلاً).

بالانطلاق من دراسة العديد من التجارب المتصلة بالزوايا⁽⁴⁸⁾ فإننا نستنتج أن مؤسسة الزوايا وفي ظل التحولات الحاصلة كان لزاماً عليها اتباع استراتيجية جديدة فعلى مستوى العلاقة القائمة بين شيوخ الزوايا والنظام القائم (السلطة السياسية) فهي على الدوام علاقة شد وجذب، تقوم بالأساس على مدى قوة الدولة أو ضعفها على العموم، فعندما تكون الدولة قوية فإن الزاوية تصبح الصوت المكبر لرعاية حقوق الدولة والحفاظ عليها وعلى استمرارها، وقد تفضل البعض منها الاستكانة والاكتفاء بالصمت والمهادنة، وعندما تكون الدولة في حالة ضعف أو تمر بأزمات حادة وإعادة تشكيل لمؤسساتها فإن الزوايا تعود للظهور بقوة وتتعالى الأصوات والانتقادات وتكون فرصة لتحقيق المزيد من المكاسب المادية والمعنوية⁽⁴⁹⁾ كما تعمل على استغلال هذه الظروف لتوسيع نشاطها من خلال إيجاد زوايا جديدة وإعادة بعث الزوايا الخاملة⁽⁵⁰⁾ وترميمات واسعة وهذا ما يمكن ملاحظته ميدانياً في السنوات الأخيرة فالكثير من الزوايا القديمة أو الميتة تعرف حركة بعث جديدة وترميمات واسعة وعودة للنشاط الاجتماعي والثقافي، ونشهد لها حضوراً قوياً في المناسبات المختلفة والدينية خاصة، وقد يكون هذا من المكاسب الجديدة لمؤسسة الزوايا بعد تلك المطالب التي رفعتها هذه المؤسسة منذ مدة إلى السلطة السياسية⁽⁵¹⁾.

أما عن الجانب التنظيمي لمؤسسة الزوايا فإننا يمكن أن نلاحظ اتجاه جديد في هيكلية مؤسسة الزوايا فلم تعد الطريقة هي الإطار الإيديولوجي لمجموع الزوايا بل اتجهت هذه الأخيرة إلى تنظيمات إدارية بحتة أملت الحاجة من خلال تأسيس الجمعيات المحلية (جمعية الزاوية) أو الوطنية، في إطار توحيد الرؤية المستقبلية لهذه المؤسسة مثل تأسيس الجمعية الوطنية " الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية" التي تأسست بموجب القرار رقم 0019 المؤرخ 27 فبراير 1990، كذلك تأسيس الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية⁽⁵²⁾ والتي ركزت في مطالبها وأهدافها على الحصول على المزيد من الاهتمام والدعم على الرغم من أن الزوايا ظلت حريصة على الظهور بمظهر المستقل عن إدارة السلطة السياسية، وإن ما تحصل عليه من امتيازات سلطوية ما هو إلا نصيبها من خدماتها المجتمعية المنسجمة مع النسق العام للبيئة المحلية والتقليدية.

3-4- الزاوية من الانزواء إلى الانفتاح:

إن المتتبع لنشاط الزوايا يمكنه أن يلاحظ التحول الكبير في منطلقات الزاوية ، فلم تعد الزوايا أماكن للانزواء والتعبد بل مؤسسات مدنية متفتحة على المجتمع ، و أوجدت لنفسها إستراتيجية جديدة تتماشى مع روح العصر وهذا ما عبر عنه شيوخ الزوايا بشكل صريح ، مثل ما جاء في محاضرة السيد عبد القادر عثمانى شيخ الزاوية العثمانية : " لقد حان الوقت ... فعلى الزوايا أن تتغير "(53)، لقد أصبحت الزوايا تعلن عن وجودها من خلال يافطات تنصب على مداخل المدن وتحدد موقعها من المدينة بعدما كانت ولزمن طويل أماكن منغلقة بعيدة .

كما أصبحت لها مواقع على شبكة الانترنت للتعريف بتاريخ الزاوية وموقعها واهم نشاطاتها (54).

عملت الزوايا إلى عقد العديد من الملتقيات الوطنية والدولية حول الطرق الصوفية وزواياها المختلفة وكل هذا يأتي تجسيدا لإستراتيجية مؤسسة الزوايا وفي إطار بعث دورها وتطبيقا لتوجهات شيوخها المشاركين في المؤتمرات والملتقيات الكثيرة التي نظمتها هذه المؤسسة (55).

إن عودة نشاط الزوايا والطرق الصوفية إلى واجهة الأحداث في المجتمعات التقليدية (الإسلامية) محكومة بعوامل سياسية منها ولا سيما صراعها مع قوى الهيمنة العالمية، وهو صراع استحضرت فيه البعد الديني عندما خص الإسلام و المسلمون بالإرهاب وتم تحميلهما مسؤولية ما ترتب عليه من نتائج فكانت العودة إلى الدين والاحتفاء به شكلا من أشكال مقاومة هذه القوى (56).

إلا أننا نرى هذه العودة مقترنة بدلالات جديدة اكتسبت بفعلها الزوايا والطرق الصوفية وظائف مختلفة عن الوظائف التي كان ينهض بها في إطار المجتمع التقليدي.

كما ساهمت وسائل الإعلام والاتصال في إعطاء دفعا للتدين ومؤسساته المختلفة سواء المؤسسات الدينية الرسمية (المسجد - المدارس القرآنية ...) أو المؤسسات الدينية الشعبية (الزاوية...) وقد ساهمت هذه الوسائل المختلفة في عودة المقدس الديني، واستعادت الزوايا جمهورا انحسر في فترة سابقة. وتزايدت أعداد المقبلين على التدين الشعبي. كما أعيد فتح ما أغلق (أهمل) من زوايا وتم ترميم عدد كبير منها، وإحياء ما كان يدور في فضائها من أنشطة وإعطاؤها طابعا رسميا بتحويلها إلى مهرجانات شعبية. (وعقدت الملتقيات والمؤتمرات) ونرى في هذا التوجه دليلا على: أن الدولة (السلطة السياسية) كانت ترمي إلى استعادة هيمنتها على الحقل الديني بعد أن نافسها التيار الأصولي في ذلك. وهو توجه أدرجته تحت عنوان " المصالحة مع الهوية" وتجلت كذلك في فتح وسائل الإعلام الرسمية أمام أشكال من التعبير الفنية المرتبطة بالزوايا والإسلام الشعبي كـ " خرجات الأولياء" و "الحضرة" و فرق الأذكار والإنشاد الديني (الصوفي خاصة منه) (57).

خاتمة :

إن إبراز مظاهر التحول في وظائف الزاوية وتراجع بعضها لا يمثل دليلا قاطعا على انزياح المقدس والديني إنزياحا كاملا من المجال الثقافي والذهني. ولا يعني أن المتخيل الجمعي قد قطع صلته من المنظومة الدينية، بل أن أعداد لا بأس بها من الأشخاص ينتسبون إلى فئات متعلمة ومتقفة والسياسيون يتظاهرون بإنكار ممارسة تلك الطقوس والاعتقاد في جدواها. لكننا نجدهم حريصين على تأدية الصلوات (صلاة الجمعة بشكل خاص) بالزوايا والعتيقة خاصة منها، دون المساجد الحديثة وقد يقطعون في الوصول إليها مسافات طويلة، كما يحرصون على حضور احتفالات "الموالد" بها وحتى الاحتفالات السنوية والمهرجانات التي تقام بها أو حولها. كما نستنتج ان مؤسسة الزوايا عملت على تغيير إستراتيجيتها تماشيا مع التغيرات الحاصلة في المجتمع الإسلامي والعالم ككل ، حيث عملت على إعادة هيكلة نفسها ، كما انتقلت من الانغلاق إلى الانفتاح ، ومن الانسحاب إلى المشاركة ، معتمدة في كل ذلك على علاقتها التوافقية مع السلطة.

- 1 - عبد الله عبد الغني غانم، طرق البحث الانثروبولوجي، المكتب الجامعي الحديث، الطبعة الأولى، 2004، ص 101.
- 2 - JEAN COPANS, L'enquête ethnologique de Terran, Nathan université. P 34.
- 3 - Ibid ; p.116
- 4 - محمد حسن غامري، مقدمة في الانثروبولوجيا العامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 37.
- 5 - نفس المرجع، ص 38.
- 6 - انظر : محمد حسن غامري، مقدمة في الانثروبولوجيا العامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 37- فتحة محمد إبراهيم و مصطفى حمدي لشنواني، مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان (الانثروبولوجيا)، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 132.
- 7 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ج14، بيروت، لبنان، 2000، ص363.
- 8 - نفس المرجع، ص 364.
- 9 - نفس المرجع ن ص 365.
- 10 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، ج4، دار الجيل، بيروت-لبنان 1996، ص401.
- 11 - نفس المرجع، ص401.
- 12 - عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية و مدارسها، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، 1999، ص132.
- 13 - محمد حجي، الزاوية الدلائية و دورها الديني و العلمي و السياسي، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1988، ص23.
- 14 - دار المعارف الإسلامية، المترجمة إلى العربية، العدد التاسع، المجلد العاشر، ص322.
- 15 - محمد حجي، مرجع سابق، ص23، 24.
- 16 - نللي سلامة العامري، الولاية و المجتمع مساهمة في التاريخ الديني و الاجتماعي لأفريقية في العهد الحفصي، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، المنوبة، تونس، 2001، ص128.
- 17 - التليبي العجيلي، الطرق الصوفية و الاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية، منشورات كلية الآداب، جامعة المنوبة، جامعة تونس 1، تونس، 1992، ص34.
- 18 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الاولى، بيروت، لبنان، 1998، ص18.
- 19 - عبد الحلیم الصيد، مجموع محاضرات و مقالات و فتاوى الشيخ عبد القادر عثمانی، مطبعة عمار قرفي، باتنة، الجزائر، 2005، ص148.
- 20 - نللي سلامة العامري : مرجع سابق، ص134.
- 21 - نفس المرجع ص167-168.
- 22 - نفس المرجع ص170، 171.
- 23 - عبد الله العروي، من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء بالمغرب، بيروت، لبنان، 2009، ص29.
- 24 - Jean Brignon, histoire du maroc. Ed Haties.casablanca.1982.p199
- 25 - للمزيد حول سيدي بن عزوز انظر عبد الباقي مفتاح، أضواء على طريقة الرحمانية الخلوتية ص124.
- 26 - عبد الباقي مفتاح، أضواء على طريقة الرحمانية الخلوتية الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009، ص124.
- 27 - نفس المرجع، ص160.
- 28 - عبد المنعم القاسمي الحسني، الطريقة الرحمانية الاصول و الآثار، دار الخليل للنشر و التوزيع، الطبعة الاولى، بوسعادة، الجزائر، 2013، ص757.
- 29 - عبد الباقي مفتاح، مرجع سابق ص153.
- 30 - محمد جحاح عبد الرزاق، الزوايا، السلطة و المجتمع دراسة حول الزاوية الخمليشية بالريف الاوسط، اطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة فاس، المغرب، السنة الجامعية 2001-2002، ص ص 220، 223.
- 31 - عبد الإله لغزاوي، مونوغرافيا المقدس، الجزء الاول، دار ابي رزق للطباعة و النشر، الرباط، المغرب، 2010، ص 264.
- 32 - Bouhdiba. A. w : criminalité et changements sociaux en tunisie, tunis. 1965.p 104

- 33 - Bouhdiba. A w : *cultue et socité, pub. De l'université de tunis* , 1978, p 188.
- 34 - زهية جويرو، *الاسلام الشعبي*، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، بيروت ،لبنان، 2007 ص85.
- 35 - جورج الراسي ، *الدين والدولة في الجزائر من الامير عبد القادر الى عبد القادر*، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2008 ،ص 280.
- 36 - زهية جويرو ، مرجع سابق ، ص: 86-87.
- 37 - محمد حلمي عبد الوهاب، *المقدس و المندس، الديني والسياسي في فكر الحركات الإسلامية*، تقديم عمار علي حسن ، دار العين للنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 2009.ص17.
- 38 - زهية جويرو ، مرجع سابق ،ص 91-92.
- 39 - نفس المرجع ، ص 92.
- 40 - نفس المرجع ،ص 93.
- 41 - Dermenghem.E ; *le culte des saints dans l'islam Maghrébin* ; paris ; Gillimard ;1954 ;p 13
- 42 - Ibid ; p p 15-16
- 43 - عماد بن صولة ، *وظائف الزاوية في المجتمع التونسي: سيدي البشير نموذجاً*، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- تونس السنة الجامعية 98-1999 -ص 421.
- 44 - الحبيب النهدي، *الأبعاد الاجتماعية لشخصية الولي، دراسة نظرية وميدانية في علم الاجتماع الديني*، شهادة الكفاءة في البحث، تونس، كلية ع. إنسانية والاجتماعية - 1992-1993. ص 90.
- 45 - زهية جويرو ، مرجع سابق ص 111.
- 46 - نفس المرجع ،ص 117.
- 47 - نفس المرجع ،ص 103.
- 48 - محمد المازوني ، *دراسات في تاريخ التصوف المغربي*، سوس للطباعة والنشر ، اكادير ، المغرب ، 2012، ص 90-91.
- 49 - نفس المرجع ، ص 32.
- 50 - محمد ضريف ، *مؤسسة الزوايا بالمغرب* ، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السيلسي - ط1- الرباط المغرب - 1992 - ص 7.
- 51 - انظر: بيان الجمعية العامة التأسيسية للرابطة الرحمانية للزوايا العلمية ، شهر اوت 1989 - كذلك نص المحاضرة التي القاها السيد عبد القادر عثمانى شيخ الزاوية العثمانية الرحمانية بطولقة يوم 26 جانفي 2003 في ملتقى الاتحاد الوطني للزوايا الجزائرية / عن عبد الباقي مفتاح : أضواء على الطريقة الرحمانية ص ص 361 - 379
- 52 - عبد الباقي مفتاح ، مرجع سابق، ص 361 و ص 368.
- 53 - انظر النص الكامل لمحاضرة الشيخ . في عبد الباقي مفتاح، مرجع سابق، ص 365.
- 54 - انظر بعض الروابط .
- 55 - انظر النص الكامل لمحاضرة الشيخ . في عبد الباقي مفتاح، مرجع سابق، ص 365.
- 56 - زهية جويرو ، مرجع سابق ، ص 105.
- 57 - نفس المرجع ، ص 107.